Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

الوضع الصحي في كبريات مدن ايران في القرنين الرابع والخامس

محمد حسين منظور الأجداد
(جامعة تربيت مدرس)

على الرغم من قدم استقرار الحياة المدنية في ايران وازدهار الحضارة الإسلامية في القرنين الرابع والخامس، وكثرة الكتابات والمصادر التاريخية، فإن القليل القليل قد كتب عن الوضع الصحي في المدن. مع ذلك فإن هذه المقالة سوف تتناول العوامل المؤثرة في ضمان صحة المدن، مثل السكان، توفير الماء وكيفيته، وضعية النفايات والمجاري في المدينة، اهتمام الناس بحفظ الصحة أو عدم اهتمامهم به وما إلى ذلك، ثم تدرس الإجابات التاريخية عن الأسئلة المطروحة. كما أنها في بحث الصحة تشير إلى بعض العوامل المسببة للمرض وطريقة عمل الأطباء وبعض طرق العلاج.

إن ما تجدر الإشارة اليه هو أن هدف هذه المقالة ليس عرض صورة كاملة للموضوع، بل هو لفت أنظار المحققين إلى هذا الجانب المنسي من التاريخ الاجتماعي لهذا البلد وهذه الأمة.

المقدمة

للحياة المدنية تاريخ قديم في ايران، وعلى الرغم من أن هجوم العرب المسلمين على أرض الشاهنشاهية الساسانية قد أوقف لفترة ما التقدم الطبيعي، إلّا أنه بعد مدة كان سبب ظهور مدن جديدة، مثل الكوفة والبصرة، وبعد خفوت موجة الفتوحات، وبعد استقرار حكومات مستقله وشبه مستقلة في ايران، ازداد عدد المدن وتضاعف سكانها.

الجغرافيون المسلمون ألّفوا الكتب العديدة عن مدن إيران في القرنين المذكورين، إلّا أن القليل منها بحث مباشرة موضوع مواجهة الناس للمشكلات الناجمة عن التجمعات السكانية[1]. فمثلا، لم يقل لنا هؤلاء المؤلفون كيف كان سكان المدن يتخلصون من القمامة، وأين كانت تذهب مياه المجاري من البيوت، وما الأمراض

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

التي كانت منتشرة في المدن، وكيف كان الأطباء يدرسون الطب وكيف كانوا يعالجون المرضى.

إن هذه المقالة الموجزة تسعى إلى جمع النتف المتناثرة بين طيات الكتب عن الوضع الصحي في المدن الكبيرة ووضعها إلى جانب بعضها. لذلك سوف نبدأ بدراسة السكان ووضع مياه الشرب في المدن، ثم نشير إلى المعابر، ونتحدث باختصار عن القمامة ومياه المجاري، ثم نتكلم على جهود الناس في تنظيف أنفسهم وحماماتهم، حتى نصل ـ بعد مقدمة قصيرة عن الامراض ـ إلى الطبابة والأطباء والمستشفيات وندرس كيفية قيامهم بواجباتهم.

سكان المدن

بما أن المصادر لا تتحدث كثيراً عن نفوس المدن (متز، ١٣٦٤هـ ش، ج٢، ٤٥٣) فإن تقديرها من الصعوبة بمكان. مع ذلك، يمكن التخمين من القرائن الموجودة. من ذلك، مثلا، يقول ناصر خسرو، استناداً إلى ما قيل له عن زلزلة تبريز: «إن هذه الزلزلة التي وقعت ليلة الخميس السابع عشر من ربيع الأول سنة ٤٣٤ هـ أدت إلى انهدام (بعض) جوانب المدينة وقتل أربعون الف شخص (ناصر خسرو، ١٣٥٨ هـش، ٧) وكان يدعو بيت المقدس بسكانها العشرين ألفاً المدينة الكبيرة (ناصر خسرو، ٢٧)، ويتحدث عن الأحساء مع اكثر من عشرين الف جندي وثلاثين ألف عبد مملوك حبشي وزنجي (ناصر خسرو، ١٠٥)، وعن ثلاثين ألف شخص في قصر السلطان وحده وسط مدينة القاهرة (ناصر خسرو، ٥٤ و٥٥). هذه القرائن حملت باسورث على أن يخمن سكان نيشابور في اوائل القرن الخامس الهجري بثلاثين او أربعين ألف نسمة، من دون الإشارة إلى المصادر التي نقلت عن أبي الفضل البيهقي. انه يقدر ضحايا القحط في تلك المدينة سنة ٤٠١ هـ بأكثر من مئة وسبعة آلاف نسمة (الراوندي، ١٣٦٤ هـش، ج٥، ٤١٩/البيهقي، ١٣٥٧ هـش، ٦٧٤)، وأن يعتبر تخمينه ذاك منصفاً (باسورث، ١٣٦٢ هـش، ج١، ١٦٤). لذلك فإننا مضطرون إلى تقدير نفوس المدن الكبيرة ببضع عشرات الآلاف، ما لم نحصل على قرائن أقرب إلى الحقيقة، فندرس حال مياه الشرب لأهالي تلك المدن.

مياه المدن

طرق توفير الماء في مختلف المدن: كان ذلك يتم بعدة طرق، كمياه الأنهار، مثل اصفهان وبخارى، ومياه القنوات، مثل سيرجان، ومياه الأنهار والقنوات معاً، مثل نيشابور والري، ومياه الآبار، مثل قم. وفيما يلي تفاصيل ذلك:

أصفهان:

يقول اليعقوبي في مصادر مياه الشرب في هذه المدينة إن لأهالي اصفهان مصادر كثيرة لمياه الشرب كالأنهار والعيون التي تجري حتى الأهواز (اليعقوبي، ١٣٤٧ هـ ش، ٥٠). ناصر خسرو شاهد في هذه المدينة «جداول من الماء الجاري» ويقول: «حيثما تحفر بعمق ١٠ گزات (گز = متر) يخرج ماء عذب بارد» (ناصر خسرو، ١١٧). ابن رُستة، الذي كان اصفهانياً، يقول إن ماء اصفهان يجيء من «نهر يسمى زرّين رود (النهر الذهبي) وهو من أحسن مياه الأرض. عندما ورد الموفق إلى اصفهان كان معه شيء من ماء دجلة، وعندما شرب من ماء اصفهان رجحه على ماء دجلة وأمر باراقة ما لديهم من ماء دجلة والاكتفاء بماء اصفهان».

وهو يعدد خصائص ماء اصفهان بما يلي: «خفيف، وصاف وزلال وعذب وجديد»[٢] (ابن رستة، ١٣٦٥ هـ ش، ١٨٣ / ابن حوقل، ١٣٦٦ هـ ش، ١٠٧).

مرو

كان أهالي مرو يشربون من مياه أربعة أنهر تتفرع من نهر مرغاب، وكانت عمارات مرو تطل على تلك الأنهر. وكانوا يأخذون مياه نهر زريق إلى الأحواض لكي يأخذ

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

منها أهل المدينة. وكان ماء كاريز في قهندز تلك المدينة. يتحدث الاصطخري عن كيفية تقسيم مياه النهر، وكان الناس تحترم المشرف على توزيع المياه أكثر مما تحترم المسؤول عن الإعانات، ويضيف «نحو عشرة آلاف شخص يقومون بوظيفة توزيع مياه هذا النهر»[٣] (الاصطخري، ١٣٤٧ هـ ش، ٢٠٦ و٢٠٧).

بخارى

كان البخاريون يشربون من مياه نهر سغد، وهو النهر الذي كان يمر بسمرقند (حدود العالم...، ١٠٦ و١٠٨/ نرشخي، ١٣٥١ هـ ش، ٣٨ وما بعدها/گوهرين، ١٣٥٦ هـ ش، ٣٧ ـ ٣٩/ لسترنج، ١٣٦٤ هـ ش، ٤٨٩).

جيرفت

يدور الكلام هنا عن «نهر جياش سريع اسمه نهر هري يجري على وجه الصخور، ولا يستطيع أحد النزول في ذلك النهر إلا إذا استطاع أن يثبت قدميه على الصخور» (الاصطخري، ٧٦).

نيشابور

بالاضافة إلى الاستفادة من مياه نهر سغاور الكبير، الذي كان يسقي المدينة والقرية، كان أهالي نيشابور يستفيدون من مياه القنوات أيضاً، والتي كانت تظهر في المدينة وتجري في البيوت والبساتين (الاصطخري، ٢٠٤ و٢٠٥).

يرى مؤلف (حدود العالم) أن «أكثر مياه هذه المدينة يأتي من العيون التي يستخرجونها من الارض» (حدود العالم، ٨٩). إلّا أن شرح لسترنج أنطق من ذلك، إذ يقول: «كل بيت في المدينة كانت تجري فيه قناة تستقي مياهها من نهر وادي سغاور .... وكان عمق بعض القنوات في البيوت يصل إلى مئة درجة. ولما كانت هذه القنوات تمر بالمدينة وتصل إلى الأراضي خارجها، كانت مياهها تركب الارض وتروي المزارع والبساتين خارج المدينة» (لسترنج، ٤١٠).

وبالاشارة إلى هذه المياه الجوفية قال أحد الظرفاء: «نيشابور كانت تكون أطيب لو ان مياهها الجوفية خرجت الى سطح الأرض، ونزل أهلها الى جوف الأرض» (متز، ج٢، ٤٥٦).

الري

«مياه شرب أهل الري توفره العيون الكثيرة والأنهار الكبيرة» (اليعقوبي، ٥١).

المؤلف المجهول لكتاب (حدود العالم) يقول إن اكثر ماء شرب الناس يأتي من القنوات (حدود العالم...، ١٤٢)، والاصطخري يذكر اسم قناتين من تلك القنوات، وهما القناة الشاهية والقناة الجيلانية (الاصطخري، ١٧٠). ابن حوقل يسميهما السوريني والجيلاني (ابن حوقل، ١٢١).

سيرجان

اكثر مياه سيرجان يأتي من القنوات في المدينة، أما في ريف تلك المنطقة فكانوا يستعملون مياه الآبار (ابن حوقل، ٧٧).

قم

«مياه شرب الناس كان يستخرج من الآبار، وللري كانوا يستخرجون الماء بالدواليب» (ابن حوقل، ١١٣ / القمي، ١٤ و١٥ و٥٥).

بناء على ذلك يمكن أن نستنتج أن الناس إما كانوا يستعملون مياه الأنهار وفروعها، وإما المياه الجوفية، وإما برفع الماء من الآبار.

كيفية مياه الشرب

سبق القول عن مياه زاينده رود وعذوبته، إلّا أنه، مثل اصفهان، لم يكن على كيفية واحدة. فمثلاً، ابن حوقل يقول عن قزوين: إن ماءها الجاري قليل ويكفي لشرب الناس فقط «وهذا الماء يجري في قناة في المسجد

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

الجامع ويسبب الطاعون. وفي المدينة أشجار وأعناب ومزارع كلها تنمو على مياه الأمطار» (ابن حوقل، ١١٣).

العناية بسلامة الماء

أُناس تلك الأيام كانوا يعنون بسلامة الماء عناية كافية. يفرد ابن سينا فصلاً مسهباً في كتابه (القانون) لدراسة أنواع المياه. إنه يعتقد «أن المياه، من حيث الجوهر، لا اختلاف بينها، ولكن بامتزاجها بمواد خارجية والكيفيات التي تمر بها تتغير حالتها» وهو يعتقد أن المياه الجارية فوق مجرى طيني أفضل من الماء الجاري فوق أرض حجرية، لأن الطين يصفي الماء ويجتذب المواد الغريبة العالقة فيه، وهذا ما لا يحصل في الارض الحجرية (ابن سينا، ١٣٦٣ هـ ش، ٢٢٥). ويشير أيضا إلى أن الماء غير العذب يصبح عذباً بالتبخير أو التقطير (ولكن) إذا تعذر التبخير أو التقطير، فيجب غليه. بعد ذلك يعدد الأمراض المختلفة التي تصيب الإنسان بسبب شربه الماء الملوث، وينصح المسافرين قائلاً إنهم اذا لم يكونوا واثقين من المياه الموجودة في الطريق والنقاط التي يسافرون إليها فعليهم غليها قبل شربها (ابن سينا، ٤٣٣ و ٤٣٤).

كان عضد الدولة من الاشخاص الذين يحملون معهم في اسفارهم ماء الشرب الذي يحتاجونه خلال السفر، وذلك مراعاة لحفظ الصحة «ولكي لا يضطر إلى شرب مياه ملوثة» (الفقيهي، ١٣٤٧ هـش، ٣١٨).

شوارع المدن

على الرغم من أن بعض المدن كانت لها شوارع واسعة ومستقيمة، إلّا أن المعابر في أغلب المدن كانت أزقة ضيقة وملتوية.. يقول المقدسي: كانت ازقة شيراز من الضيق بحيث أن حيوانين من ذوات الأربع لم يكونا قادرين على المرور فيها معاً. وكانت تبرز من البيوت إلى الزقاق بنايات وطيئة تصطدم بها رؤوس المارة فتؤذيهم (المقدسي، ١٣٦١ هـ ش، ٦٤٠).

يرى علي أصغر الفقيهي أن الأزقة كانت ترصف بالأحجار عادة، وينقل عن (الإصطخري) «أنه قلما تجد في سمرقند زقاقاً لم ترصف أرضه بالحجر». (الفقيهي، ١٣٥٧ هـ ش، ٥٩٨م. (لم يلحظ هذا في المسالك والممالك المذكورة).

القمامة والمجاري

لم يحظ هذان الأمران بالعناية الكافية في المصادر التاريخية فلا يعلم كيف كانوا يتخلصون من قمامة المدن. إنما يمكن التخمين أن قمامة المدن كانت ترمى في الأنهر اذا كان في المدينة نهر. قيل: «إن أهل بغداد لم يكونوا يعنون بالنظافة، إذ كانوا يرمون النفايات والقاذورات في نهر دجلة، وكانوا يشربون من ماء ذلك النهر نفسه، فكانت النتيجة انتشار الأمراض المختلفة بينهم. كان الخلفاء يصدرون أحياناً أوامرهم بمنع ذلك، كما فعل (المقتدى العباسي)، في النصف الثاني من القرن الخامس، فقد أمر بحفر الآبار لتلقى فيها مياه مجاري الحمامات، التي كانت ترمى قبل ذلك في نهر دجلة، فلا يلوثوا نهر دجلة» (الفقيهي، ١٣٤٧ هـ ش، ٢٣٦، نقلاً عن ابن كثير، ج٢، ١١١).

يقول المقدسي أن أهل شيراز «لم يكونوا يرمون القمامة إلا في الأماكن المخصصة لها» (المقدسي، ٦٥٥) ولكنه لا يشرح ذلك.

ناصر خسرو، عند وصفه لميضأة المسجد الجامع في ميافارقين، يقول إن أربعين حجرة كانت أمام تلك الميضأة... وإن جدولين كبيرين كانا يدوران في جميع البيوت، أحدهما ظاهر للاستعمال، والآخر تحت الأرض حيث كان يجرف النفايات فينظف الآبار (ناصر خسرو، ١٠).

في المدن الأخرى كانت «آبار المراحيض تحفر في الزقاق، وكان الكناسون ينظفونها بين حين وآخر

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

فـيملأون القـرب بـالقاذورات ويـخرجـونها مـن الآبـار ويرمونها عند حافة الطريق». (محمد بن منور، ١٣٦٦ هـ ش، ٤٠٥).

الظاهر أن تلك القاذورات كانت تحمل إلى خارج المدينة. ففي البصرة، مثلاً، كان حمل القاذورات البشرية ونقلها يتمّـان بصورة تجارية، وكان بـعض التـجار يـقومون بذلك. وهناك لطيفة تروى، خلاصتها أن مسـافراً عـائداً من البصرة سئل: كيف رأيت المدينة؟ فقال: هي للجائع والأعزب والمفلس خير مكان، فالجائع ما إن يصل حتى يكون خبز الشعير والسمك المالح حاضرين... والفـقير المفلس يسـتطيع أن يـحصل عـلى المـال مـن فـضلات معدته! (متز، ج٢، ٤٥٦).

الحمامات

خلال القرنين الموضوعين للبحث،كانت الحمامات من ضروريات الحياة اليومية في المدن الكبيرة حيث كانت الحـمامات الجـيدة وافـرة العـدد. كـان للشـخصيات والأعيان حماماتهم الخاصة، وكان في بعض الحمامات العامة غرف خاصة أيضاً (الفقيهي، ١٣٥٧ هـ ش، ٧٥٦).

كانت الحمامات تبنى عادة تحت الأرض لكي يمكن ملء خزاناتها بالماء بسهولة. وكانت الجدران تزين بالصور واللوحات الملونة، ويضعون عند مدخل الحمام حـزمة من الحسك لتستخدم في تسـخينه. الظـاهر أن الحـمام كـان ذا ثـلاثة أقسـام: الأول لخـلع المـلابس، والقسـم الوسطي، ثم القسم الحار. عنصر المـعالي يـنصح ابـنه «اذا دخلت الحمام في الشتاء والصيف فتلبث فترة فـي القسم البارد، وبعد ان يتطبع الجسم على ذلك، انتقل إلى القسم الوسطي، ثم بعد ذلك أدخل القسم الحار واجلس بعض الوقت حتى يتشبع جسمك بحرارة الحمام، عندئذ أُدخل إلى الخلوة واغسل رأسك هناك.» ثم يضيف قائلاً: «لا تمكث في الحمام طويلاً، ولا تسكب على جسمك ماءاً حاراً جداً أو بارداً جداً، بل لابـد أن يكـون مـعتدلاً. واذا كان الحمام خالياً، فتلك غنيمة كـبيرة»، كـما أنـه يشـير عليه بتجفيف شعره جيداً، وأن لا يذهب الى الحمام وهو شبعان. (عنصر المعالي، ٦٢).

في نظر ابن أخوه، الذي ألّف كتابه بعد قرنين من الفترة التي نحن بصددها، يصف أبـهاء الحـمام بـالخصائص التالية:

«البهو الأول للتبريد والتنقيع، والبهو الثاني للإحماء والتـرطيب، والبـهو الثـالث للـحرارة والتـجفيف.» ثـم يضيف قائلاً: «حرام على النساء أن يذهبن إلى الحـمام إلّا النفساء أو المريضة.... ويكره أن يدفع الرجل أجـرة حمام النسـاء، لأنـه إعـانة عـلى المكـروه.» واعـتقد «أن النقوش والتزيينات المرسومة على مدخل الحمام أو في داخله ليست جائزة ويجب محوها.» (ابن أخـوه، ١٣٦٠ هـ ش، ١٦٠ ـ ١٦٢).

عند دخول الأثرياء إلى الحمام يقف الحاضرون جميعاً (نـاصر خسـرو، ١٠٩ ـ ١١٣). واحـياناً لم يكـن النـاس يأتزرون، في بعض الحمامات كان بـهو الحـرارة عـلى درجة الإحماء بحيث أن أحداً لم يكن يستطيع أن يمكث فيه[٤] (المقدسي، ٦٥٥).

كان الدلاكون يخدمون الناس. وهناك رواية في (اسرار التوحيد) تدل على أن الدلاك كـان يـجمع الوسـخ عـلى عضد المشتري ليعلم أنه فعل شيئاً. والشـيخ اعـتقد أن الفتوة هي أن لا يأتوا بالرجل المرح أمامه. (مـحمد بـن منور، ٢٦٨).

الأمراض

عن رعاية الروس للشؤون الصحية يقول (ابن فضلان): «إن عليهم أن يغسلوا رؤوسهم ووجوههم يومياً بأقذر المياه وأنجسها واشدها تلوثاً.» (ابن فضلان، ١٣٤٥ هـ ش، ١٠٢)، ثم يشرح ذلك قائلاً إن الروس الساكنين في بـيت واحـد يـغسلون ايـديهم ووجـوههم وشـعورهم وأفـواهـهم ومـناخيرهم فـي طست واحـد مـن المـاء.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

الايرانيون، بخلاف الروس، كانت عنايتهم بالصحة أكثر، إلّا أن التقارير المتوافرة عن المدن المختلفة تشير إلى أن الصحة البيئية لم تكن كما يجب لتوفير حياة سليمة للناس. مثلاً، يقول الثعالبي: «من ظواهر مدينة الأهواز الحمى الدائمة التي تصيب أهلها وتقتل الغرباء عنها. ينقل عن قابلات مدينة الأهواز أن من يقبّل طفلاً حديث الولادة يحس بأنه محموم. في الأهواز لا تجد أثراً للخدود الموردة، سواء في الاولاد أم في البنات. في الجبال المشرفة على سوق الأهواز (الأهواز الحالية) تكثر الأفاعي، وفي البيوت العقارب الجرارة. ووراء مدينة الأهواز مستنقعات ومبازل تجري فيها مياه آسنة غليظة، وأنهر من فضلات المراحيض ومياه الأمطار ومياه الغسيل، مما يسبب ايجاد الهواء الفاسد الذي يفسد كل شيء» (الفقيهي، ١٣٥٧ هـ ش، ٦١٠).

الذباب والبعوض

يبدو أن الذباب والبعوض كان كثيراً في بعض مناطق المدن. المقدسي، في معرض كلامه على مدينة گركان (يعني: الذئاب) ووجه هذه التسمية، يقول: «إنهم مبتلون بذباب وبعوض مثل الذئاب (گركان) المفترسة، ولعل هذا هو سبب تسميتها بهذا الاسم» (المقدسي، ٥٢٤). كما أنه يشير الى مدينة آمل وبعوضها المقلق. (المقدسي، ٥٢٧).

الطبابة

ابتداء من القرن الثاني الهجري وما بعده، عند تعرف المسلمين على العلوم اليونانية، نشط المترجمون في ترجمة كتب جالينوس وبقراط وغيرهما، ثم «تكامل علم الطب على أيدي المسلمين تكاملاً عميقاً، كما ان الثقافة الطبية الغربية تأثرت تأثراً كبيراً بما اقتبسوه من المسلمين في هذا العلم» (الشريف، ١٣٥٩ هـش، ١١٦ وما بعدها).

من الذين بذلوا جهوداً كبيرة في ترجمة الكتب الطبية اليونانية، وكانت له مساعٍ حثيثة في اكتساب العلم، حنين بن اسحق، الذي بلغ شأواً رفيعاً في طب العيون، كما ذكر ذلك ابن أبي أصيبعة في كتابه[٥] (ابن أبي اصيبعة، ١٣٤٩ هـ ش، ٤٥٨ وما بعدها).

توسع علم الطب على عهد آل بويه. علي بن عباس الأهوازي المعروف بالمجوسي، ألف كتاب (كامل الصناعة)، الذي اشتهر باسم (الطب الملكي)، بطلب من عضد الدولة، وحظي بشهرة واسعة حتى تأليف ابن سينا كتابه (القانون) (الگود، ١٣٥٦ هـ ش، ١٨٣ ـ ١٨٥ النجم آبادي، ١٣٥٣ هـش، ٤٤٣ ـ ٤٧٧).

كيفية التطبيب

كان الرازي يجلس في مجمع مع تلاميذه ويفحص المرضى. وابن سينا، على الرغم من كثرة انشغاله بالوزارة، كان يلقي دروسه من كتابيه (الشفاء) و(القانون) قبل طلوع الصبح. من الطبيعي أن يكون أطباء السلاطين ذوي مشاغل كثيرة. ويل دورانت ينقل عن ابن ميمون، الطبيب اليهودي في بلاط الأيوبيين في مصر، أنه كتب إلى صديق له: «لا تتوقع مني أن أبحث معك مسألة علمية خلال اليوم، حتى لساعة واحدة، لأن عملي اليومي يجري كما يلي:

انني أسكن الفسطاط والسلطان يسكن القاهرة، والمسافة بينهما تطول مدة يومين كاملين (٢٠٥ كم). إن مسؤولياتي أمام نائب السلطان (ابن السلطان صلاح الدين) مسؤوليات كبيرة وشاقة. أنا مكلف في الصباح الباكر كل يوم أن أزوره، وعندما يكون هو أو أي فرد من أهله وأبنائه ونسائه مريضاً فلست أجرؤ على مغادرة القاهرة، بل علي أن أقضي معظم اليوم في القصر... وحتى العصر عليّ أن لا أرجع الى الفسطاط... عندئذ أكون مشرفاً على الموت، أرى مختلف الناس في الخارج: العلماء الربانيين، رجال الشرطة، الأصدقاء

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

والأعداء. انزل من عربتي، أغسل يدي، وأطلب من مرضاي أن يتركوني برهة وجيزة لأسد جوعي، وتكون هذه هي الوجبة الوحيدة التي أطعمها خلال أربع وعشرين ساعة. ثم الى الغروب، وأحياناً لساعتين بعد الغروب، وحتى بعد ذلك... أظل أفحص مرضاي، وفيما أنا متمدد على ظهري لشدة التعب، أصدر التعليمات والوصفات. وعند دخول الليل أكون على درجة من التعب والإنهاك لا أستطيع معهما أن أنطق بحرف...» (دورانت، ١٣٦٨ هـ.ش، ج ٤، ٥٢٩).

أساليب العلاج

على الرغم من عدم إمكان معرفة جميع أساليب الأطباء القدامى في معالجاتهم، ولكننا نعلم إجمالاً أن أصول التداوي في السابق كانت كما يلي:

أ ـ تجنب استعمال الدواء على قدر الإمكان.

ب ـ في حالة الضرورة، استعمال العقاقير الطبيعية لها الأفضلية.

ج ـ واذا لزم استعمال الأدوية، ترجح المفردات على المركبات. (النفيسي وابن سينا وديابت، مجموعة مقالات، ١٣٥٩ هـ.ش، ٣٤٢).

على ذلك، استناداً إلى هذه الأصول، يبدأ الاطباء علاجهم بالأغذية مطلقاً، مثل ماء اللحم الخفيف، وصفار البيض، وغير ذلك، ومن ثم يعالجون المريض بالأغذية العلاجية، كالخس والشلغم... ثم الخضروات الطبية والفواكه، مثل النعناع والهندباء والمشمش، ثم الأدوية المفردة وبعدها المركبة.

الفصادة

الفصادة أو الحجامة كانت من جملة علاجات تلك الأيام. ابن أخوه يقول بالنسبة للفصادة أو الحجامة إن «الفصّاد يجب أن يكون معروفاً بالعلم والأمانة» (ابن أخوه، ١٦٦ ـ ١٦٨). عشر مجموعات من الناس لا يجوز فصدهم إلّا باستشارة الطبيب، منهم ذوو الاجسام النحيفة جداً. أو الجافة، أو البيض الضعفاء. إنه اعتقد أن «الحجامة مفيدة جداً وخطرها أقل من فصد العروق» (ابن اخوه، ١٦٧).

الأطباء المزيفون

في زمن العباسيين كان الكثيرون يتطببون من دون أن تكون لهم دراية بالطب والتطبيب، بحيث إن سنان بن ثابت عُيّن لاختبار الأطباء لكي يمنع من التطبيب أولئك الذين لا علم لهم بالطب. يؤكد ابن أخوه أن رسول الله قال: «من تطبب دون علم بالطب يكون ضامناً» (ابن اخوه، ١٧٠)، كما أنه كان يريد أن يكون لأطباء كل مدينة رئيس للأطباء لكي يختبر الأطباء، على غرار عهد ملوك اليونان، ويمنع كل من رآه ضعيف البضاعة.

طب العيون

انتشرت الكحالة بين المسلمين انتشاراً واسعاً، خاصة بعد انتشار كتاب حنين بن اسحاق بعنوان (عشر مقالات في العين). يظهر أن كحالي ذلك الزمان كانوا يعالجون الماء الابيض، فكانوا «يدخلون إبرة مجوفة من جهة بياض العين ويخرجون العدسة بالمص» (الگود، ١٦٤).

المستشفيات

كانت المستشفيات تشيّد في المدن الكبيرة، المقدسي يتحدث عن وجود مستشفى في مدينة آمل ويقول إن مستشفى هذه المدينة كان عامراً (المقدسي، ٥٢٦)، كما يشير إلى مستشفيات في شيراز المجهزة بحاجاتها وبأطباء حاذقين ومضمدين وموظفين، ويضيف قائلاً أنه كان لتلك المستشفيات موقوفات كثيرة (المقدسي، ٦٤٢). كذلك كانت هناك مستشفيات في اصفهان تتوافر فيها وسائل معالجة الناس، ويبدو أن المعالجة في المستشفيات الكبرى كانت مجانية. كما أن الفقراء كانوا يتسلمون الإعانات عند تسريحهم. (الگود، ٢٠٦).

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

دور المجانين

على الرغم من افتقارنا إلى خبر موثّق عن وجود دور للمجانين في المدن الإيرانية، ولكن الذي لاشك فيه هو وجود هذه الدار في بغداد. وشهادات الجنون كانت تصدر عن قاضي البلد (الگود، ٢٠٧). في (سياست نامه) للخواجة نظام الملك وردت قصة تدل على إمكان استغلال القضاة هذا الحق استغلالاً سيئاً. (الخواجة نظام الملك الطوسي، ١٣٧٠، ٨٨ ـ ٩٨).

الهوامش

١ ـ هذا في الوقت الذي يقول ابن الفقيه، الجغرافي الشهير، في كتابه: «هكذا يقول: بين خراسان وأرض الهند يوجد نمل مثل الكلاب السلوقية، وتلك الأرض هي أرض الذهب والناس يذهبون إلى هناك بحثا عنه، فاذا هاجمهم النمل ألقوا اليهم قطعاً من اللحم، فينشغل النمل بأكل اللحم وينتهز الناس الفرصة لأخذ مايستطيعون من الذهب، ثم يهربون خوفاً من النمل». ولكنه لم يذكر شيئاً عن مياه المدن سوى الكليات، باستثناء مياه جبل ألوند الباردة وأورد وصف تلك المياه العذبة شعراً ونثراً (أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحاق الهمداني المشهور بابن الفقيه. ترجمة (مختصر البلدان)، القسم الخاص بايران ترجمة ح. مسعود. طهران، ١٣٤٩ هـ. ش، ١٧٤ و٣٨).

٢ ـ ابن حوقل في سفرنامه ابن حوقل يقول: هذا النهر (زرن رود ـ زاينده رود)ذو مياه عذبة.

٣ ـ حدود العالم من المشرق إلى المغرب، بسعي منوچهر ستوده، طهران، ١٣٤٠، ٩٤، وهو يرى أن خراج الري يقوم على الماء.

٤ ـ المقدسي، يقول في وصف أهل شيراز: قلما يأتزرون، وكثير من الحمامات، كما في اصفهان تحميها النساء. وفي وصف حمام في شيراز يقول: «في البهو الداخلي الحرارة من الشدة بحيث لا يستطيع أحد أن يمكث فيه».

٥ ـ إبن أبي أصيبعة يشرح في كتابه التنافس بينه وبين جبريل بن بختيشوع، مما سبب له الكثير من العذاب حسادة المنافس وسرعة تصديق المتوكل.

المصادر

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ترجمة السيد جعفر غضبان ومحمود النجم آبادي، طهران، ١٣٤٩ هـ ش.

● ابن أخوه، محمد بن أحمد القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، آئين شهرداري در قرن هفتم، ترجمة جعفر الشعار، مركز انتشارات علمي وفرهنگي، طهران، ١٣٦٠ هـ ش.

● ابن حوقل، سفرنامه ابن حوقل، ايران في صورة الأرض، ترجمة وتوضيح جعفر الشعار، طهران، ١٣٦٦ هـش.

● ابن رستة، احمد بن عمر بن رستة، الأعلاق النفسية، ترجمة وتعليق حسين قره‌چانلو، مؤسسة انتشارات أمير كبير، طهران، ١٣٦٥ هـش.

● ابن سينا، أبو علي حسين بن عبد الله، القانون في الطب، ترجمة عبد الرحمن شرفكندي (هه‌ژار)، انتشارات سروش، طهران، ١٣٦٣ هـش.

● ابن فضلان، احمد بن فضلان بن العباس بن راشد ابن حماد، سفرنامه ابن فضلان، ترجمة أبي الفضل الطباطبائي، انتشارات بنياد فرهنگ ايران، طهران، ١٣٤٥ هـش.

● ابن الفقيه، ابو بكر احمد بن محمد بن اسحاق الهمداني، ترجمة مختصر البلدان) (القسم الخاص بايران)، ترجمة ح. مسعود، انتشارات بنياد فرهنگ ايران، طهران، ١٣٤٩ هـش.

● الإصطخري، ابو اسحاق إبراهيم، المسالك والممالك، بسعي ايرج أفشار، بنگاه ترجمه ونشر كتاب، طهران، ١٣٤٧ هـ ش.

● الگود، سيريل، تاريخ پزشكي ايران وسرزمين‌هاى خلافت شرقي، ترجمة باهر فرقاني، طهران، ١٣٥٦ هـش.

● باسورث، كليفورد ادموند، تاريخ غزنويان، ترجمة حسن أنوشه، مؤسسة انتشارات امير كبير، طهران، ١٣٦٢ هـش.

● حدود العالم من المشرق إلى المغرب، بسعي

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

منوچهر ستوده، انتشارات دانشگاه تهران، طهران، ١٣٤٠ هـ ش.

● دورانت، ويل، تاريخ الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة ابو طالب صارمي وابو القاسم پاينده وابو القاسم طاهري، سازمان انتشارات وآموزش انقلاب اسلامي، طهران، ١٣٦٨ هـش.

● الراوندي، مرتضى، تاريخ اجتماعي ايران، حيات اقتصادي مردم ايران از آغاز تا امروز، طهران، ١٣٦٤ هـش.

● شريف، م.م. منابع فرهنگ اسلامي، ترجمة السيد خليل خليليان، دفتر نشر فرهنگ اسلامي، طهران، ١٣٥٩ هـش.

● عنصر المعالي، كيكاوس بن اسكندر، قابوس نامه، بسعي سعيد نفيسي، كتابفروشي فروغي، طهران، بلا تاريخ.

● فقيهي، على أصغر، شاهنشاهي عضد الدولة، چگونگي فرمانروايي عضد الدولة ديلمي وبررسي أوضاع ايران در زمان آل بويه. مطبوعاتى اسماعيليان، طهران، ١٣٤٧ هـش.

● فقيهي، علي أصغر، آل بويه واوضاع زمان ايشان بانموداري از زندگى مردم آن عصر، انتشارات صبا، طهران، ١٣٥٧ هـ ش.

● گوهرين، سيد صادق، حجة الحق أبو علي سينا، انتشارات توس، طهران، ١٣٥٦ هـش.

● لسترنج، گى، جغرافياى تاريخ سرزمين‌هاى خلافت شرقي بين النهرين، ايران وآسياى مركزي از زمان فتوحات مسلمين تا ايام تيمور، ترجمه محمود عرفان، شركت انتشارات علمى وفرهنگى، طهران، ١٣٦٤ هـ ش.

● متز، آدم، تمدن اسلامي در قرن چهارم هجري، ترجمه علي رضا ذكاوتي قرار گوزلو، مؤسسة انتشارات أمير كبير، طهران، ١٣٦٤ هـ ش.

● محمد بن منور، اسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، المقدمة، تصحيح وتعليق محمد رضا شفيعي كدكنى، انتشارات آگاه، طهران، ١٣٦٦ هـ ش.

● المقدسي، ابو عبد الله محمد بن احمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ترجمة على نقي منزوي، شركت مؤلفان ومترجمان ايران، طهران، ١٣٦١ هـش.

● ناصر قمي، محمد حسين بن محمد حسن القمي، تاريخ قم الموسوم بمختار البلاد، كتابفروشى اسلامية، طهران، بلا تاريخ.

● ناصر خسرو قبادياني مرزوي، سفرنامه ناصر خسرو، بسعي نادر وزين پور، شركت سهامي كتابهاى جيبي، طهران، ١٣٥٨ هـش.

● نجم آبادي، محمود، تاريخ طب در ايران پس از اسلام از ظهور اسلام تا دوران مغول انتشارات دانشگاه تهران، طهران، ١٣٥٣ هـ ش.

● نرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر، تاريخ بخارا، ترجمة أبي نصر احمد بن محمد بن نصر القبادي، تلخيص محمد بن زفر بن عمر، تصحيح وتحشية مدرس رضوي، انتشارات بنياد فرهنگ ايران، طهران، ١٣٧٠ هـش.

● نظام الملك توسي (خواجه) سياستنامه (سير الملوك) بسعي جعفر شعار، شركت سهامي كتابهاى جيبي، طهران، ١٣٧٠ هـ ش.

● نفيسي، أبو تراب، ابن سينا وديابت (مرض قند) مجموعة مقالات وسخنراني‌هاي هزاره ابن سينا، كميسيون ملي يونسكو در ايران، طهران، ١٣٥٩ هـش.

● يعقوبي، احمد بن ابي يعقوب، البلدان، ترجمة محمد ابراهيم آيتي، بنگاه ترجمه ونشر كتاب، طهران، ١٣٤٧هـ ش.

* * *